جامعة كربلاء
كلية العلوم الإسلامية
دراسات اسلامية معاصرة / العدد 46 / كانون الاول2025

الأثرُ النفسيُ للاستكبارِ على الأفرادِ والمجتمعاتِ على وفقَ المنظورِ القرآنيِ

The psychological impact of arrogance on individuals and societies according to the Qur'anic perspective

م.د مصطفى حسين عبد الرسول

Dr. Mustafa Hussein Abdul-Rasoul

جامعة كربلاء/ كلية العلوم الإسلامية
University Of Kerbala / College of Islamic Sciences

الكلمات المفتاحية:الاستكبار، النرجسية، الهيمنة الاجتماعية، التواضع، الروحانية، الأخلاق الإسلامية، الإصلاح الاجتماعي.

Key words: Qur'an; arrogance; narcissism; psychology; social dominance; humility; spirituality; Islamic ethics; social reform.

المخلَّص:

يتناول هذا البحث مفهوم الاستكبار في القرآن الكريم من منظور نفسي واجتماعي وأخلاقي. ويُعرض الاستكبار بوصفه ظاهرة سلوكية مدمّرة متجذرة في الطبيعة الإنسانية، تتجلى في الغرور وخداع النفس ورفض الحق. وقد تناولت الدراسة الروايات القرآنية لشخصيات مثل إبليس وفرعون وقارون لتوضيح صور الاستكبار الفردي والجماعي وما يترتب عليها من نتائج كارثية على الأفراد والمجتمعات. واستنادًا إلى التفسير القرآني والنظريات النفسية الحديثة، يسلط البحث الضوء على الجذور النفسية للاستكبار، بما في ذلك النرجسية، وحب السيطرة، والجهل، إلى جانب العوامل الاجتماعية مثل التنشئة والتأثير الثقافي والسلطة السياسية. وتُظهر النتائج أن الاستكبار لا يقتصر أثره على إضعاف الصحة النفسية للفرد عن طريق تعزيز القلق وتضخم الأنا والعزلة الاجتماعية، بل يمتد كذلك ليقوّض تماسك المجتمع والعدالة والتقدم الحضاري. ويقدّم القرآن الكريم إطارًا علاجياً متكاملاً، يركّز على العبادات، والتزكية، والتواضع، والإصلاح الاجتماعي كوسائل فعّالة للوقاية من الاستكبار والتغلب عليه. ويؤكِّد هذا النهج التكاملي راهنيَّة القرآن الكريم في معالجة قضايا التنمية الفردية والانسجام المجتمعي، عن طريق الجمع بين التوجيه الروحي الخالد والرؤى النفسية والاجتماعية المعاصرة.

Abstract

This research examines the concept of arrogance (*istikbār*) in the Holy Qur'an from psychological, social, and ethical perspectives. Arrogance is presented as a destructive behavioral phenomenon rooted in human nature, manifesting in pride, self-deception, and rejection of truth. The study analyzes Qur'anic narratives of figures such as Iblis, Pharaoh, and Qarun to illustrate the individual and collective forms of arrogance and their devastating consequences for individuals and societies. Drawing on Qur'anic exegesis and modern psychological theories, the research highlights the psychological roots of arrogance—including narcissism, desire for domination, and ignorance—alongside social factors such as upbringing, cultural influence, and political authority. The findings demonstrate that arrogance not only disrupts individual mental well-being by fostering anxiety, egocentrism, and social isolation, but also undermines societal cohesion, justice, and civilizational progress. The Qur'an offers a comprehensive therapeutic framework, emphasizing worship, self-purification, humility, and social reform as effective means of preventing and countering arrogance. This integrative approach affirms the Qur'an's relevance in addressing both personal development and societal harmony, linking timeless spiritual guidance with contemporary psychological and social insights.

بسم الله الرحمن الرحيم

المقدِّمة.

الحمد لله رب العالمين وأفضل الصلاة والسلام على النبي الأمين والأئمة اللهاميم (عليهم السلام) وعلى صحبه المنتجبين.

وبعد...

يُعد الاستكبار من الظواهر السلوكية المعقدة التي تمتد جذورها في النفس البشرية، حيث يشكل عاملاً مؤثراً في تشكيل شخصية الأفراد وسلوكياتهم تجاه الآخرين.

ومن منظور قرآني يُعد الاستكبار صفة سلبية ترتبط بالغرور والتعالي ورفض الحق وقد حذَّر القرآن الكريم من خطورته وبيّن عواقبه الوخيمة على الأفراد والمجتمعات.

إن التاريخ البشري زاخر بأمثلةٍ لِمن استكبروا فأهلكهم الله كما في قصص فرعون وقارون وإبليس مما يؤكد أن الاستكبار ليس مجرد نزعة نفسية فردية بل هو سلوك يؤدي إلى انهيار الحضارات وزوال الأمم.

إن أهمية البحث تنبع من كونه يعالج الاستكبار من زاوية قرآنية ونفسية واجتماعية بهدف الكشف عن أسبابه، وأنواعه، وآثاره النفسية والمجتمعية، ومن ثم تقديم الحلول التي طرحها القرآن الكريم لمعالجته والوقاية منه، فالاستكبار ليس مجرد مسألة أخلاقية بل يمتد تأثيره إلى مجالات متعددة مثل العلاقات الاجتماعية، والقيادة، واتخاذ القرار، مما يجعل دراسته ذات بُعد حضاري وإنساني عميق.

إشكالية البحث وأهدافه:

يتمحور هذا البحث حول الإشكالية الآتية: كيف تناول القرآن الكريم مفهوم الاستكبار، وما هي أسبابه وآثاره على الأفراد والمجتمعات؟

ويهدف البحث إلى:

أ. توضيح مفهوم الاستكبار من الناحية اللغوية والاصطلاحية في ضوء النصوص القرآنية.

ب. دراسة أبعاده النفسية والاجتماعية عن طريق تحليل سلوكيات المستكبرين في القرآن الكريم.

ت. بيان خطورة الاستكبار على الفرد والمجتمع من الناحية الفكرية والأخلاقية.

ث. تسليط الضوء على المنهج القرآني في معالجة الاستكبار والوقاية منه.

منهج البحث:

يعتمد البحث على المنهج الاستنباطي القائم على تحليل النصوص القرآنية المتعلقة بالاستكبار فضلًا عن الاستفادة من المنهج المقارن في تحليل العلاقة بين الاستكبار والمفاهيم النفسية والاجتماعية الحديثة مع الرجوع إلى تفاسير القرآن الكريم لفهم أبعاد المصطلح وسياقه في مختلف المواضع.

تقسيمات البحث:

ينقسم البحث إلى ثلاثة مباحث رئيسة:

المبحث الأول: المفاهيم والأسس النظرية للاستكبار في القرآن الكريم والعلوم الإنسانية

أ. تعريف الاستكبار لغة واصطلاحا

ب. الفرق بين الاستكبار والتكبر والغرور

ت. الاستكبار في علم النفس والفلسفة الاجتماعية

المبحث الثاني: أنواع الاستكبار وأسبابه على وفق المنظور القرآني

أ. الاستكبار الفردي والجماعي في القرآن الكريم

ب. الأسباب النفسية والاجتماعية المؤدية إلى الاستكبار

المبحث الثالث: المعالجة القرآنية للاستكبار والوقاية منه

أ. دور العبادات والتزكية في مواجهة الاستكبار

ب. التربية القرآنية وتعزيز التواضع

ت. الحلول القرآنية لمعالجة الاستكبار المجتمعي

وفي الختام تم استعراض أبرز النتائج والتوصيات المستخلصة من البحث.

المبحث الأول: المفاهيم والأسس النظرية للاستكبارفي القرآن الكريم والعلوم الإنسانية.

المطلب الأول: تعريف الاستكبار في القرآن الكريم.

أولا: الاشتقاق اللغوي للاستكبار ومعانيه.

الاستكبار: مأخوذ من الجذر الثلاثي (ك–ب–ر) وهو يدل على العظمة والرفعة، واستكبر على وزن استفعل مما يدل على طلب الكِبَر والتعالي عن قصدٍ سواء أكان ذلك بحق أم بغير حق، قال ابن فارس: "الكاف والباء والراء أصلٌ صحيحٌ يدلُّ على خلاف الصِّغر، ثم يُشتَقُّ منه معانٍ تُقارب الأصل"[1].

الاستكبار اصطلاحا: "إظهار العظمة والتعالي عن الآخرين بغير حق، ورفض التسليم للحق بدافع من الجهل والأنانية"[2].

وفي القرآن الكريم ورد لفظ (الاستكبار) في عدة مواضع بمعنى التعالي والتكبر بغير حق، كما في قوله تعالى: "وَاسْتَكْبَرَ هُوَ وَجُنُودُهُ فِي الْأَرْضِ بِغَيْرِ الْحَقِّ"[3].

وقد فسر العلامة الطبرسي الاستكبار بأنه الامتناع عن قبول الحق مع الشعور بالعلو والتعاظم، حيث يقول في تفسيره: "الاستكبار هو الترفع عن قبول الحق وعدم الخضوع له تكبّراً وتجبرًا"[4].

ثانيا: الفرق بين الاستكبار والتكبر والغرور.

هناك فروق دقيقة بين هذه المصطلحات رغم ارتباطها ببعضها:

1. الاستكبار: هو الترفّع عن الحق وعدم الخضوع له رغم وضوحه، وهو مذموم في جميع السياقات، من مصاديقه القرآنية قوله تعالى : "إِنَّ الَّذِينَ يَسْتَكْبِرُونَ عَنْ عِبَادَتِي"[5].

يقول السيد الطباطبائي في تفسيره: "الاستكبار حالة نفسية تدفع الإنسان إلى رفض الخضوع للحق والتسليم له بسبب اعتقاده المتضخم بنفسه"[6].

2. التكبر: هو التعالي على الناس واحتقارهم سواء أكان ذلك بحق أم بغير حق، يقول الإمام الصادق (عليه السلام): "الكبر هو أن تغمط الناس وتسفه الحق"[7].

إن التكبر يشمل الاستعلاء على الآخرين بالإضافة إلى رفض الحق.

3. الغرور: هو الانخداع بالنفس واعتقاد الشخص أنه أفضل مما هو عليه في الواقع.

قال الراغب الأصفهاني: "الغرور هو سكون النفس إلى ما يوافق الهوى، ويطمئن إليه القلب مع كونه باطلاً"[8].

وقال الشيخ الطوسي: "الغرور هو الاغترار بما لا حقيقة له، كمن يظن أن قوته الذاتية تغنيه عن الله، فينخدع بها حتى يسقط"[9]، ومن مصاديقه قوله تعالى: "فَلَا تَغُرَّنَّكُمُ الْحَيَاةُ الدُّنْيَا"[10].

المطلب الثاني: الاستكبار في علم النفس والفلسفة الاجتماعية

أولا: مفهوم الاستكبار في النظريات النفسية الحديثة.

يُعرَّف الاستكبار في علم النفس بأنه: حالة نفسية تتجلى في المبالغة في تقدير الذات، واحتقار الآخرين، ورفض الاعتراف بالخطأ أو قبول النقد، مع رغبة مستمرة في السيطرة والتفوق بغير استحقاق[11].

وتُعتبر هذه السمة من السمات الشخصية السلبية التي تؤثر على العلاقات الاجتماعية والسلوكيات الفردية والجماعية.

الاستكبار في نظرية النرجسية:

تُعتبر نظرية النرجسية من أكثر النظريات التي تفسر الاستكبار، حيث يرى فرويد أن النرجسية تنشأ نتيجة التثبيت على مرحلة مبكرة من التطور النفسي، مما يؤدي إلى تضخم الأنا وعدم تقبل النقد[12].

وفي السياق قسّم العلماء النرجسية إلى نوعين:

أ. النرجسية العلنية: حيث يكون الشخص واثقا بنفسه لدرجة الغطرسة ويرفض أي تحدٍ لصورته الذاتية.

ب. النرجسية الخفية: حيث يظهر الشخص متواضعا خارجيا لكنه يحمل إحساسا داخليا بالتفوق والاستحقاق.

يؤكد عالم النفس بولهويس أن الاستكبار يتجلى في النرجسية العلنية أكثر، حيث يعتقد الفرد أنه فوق الآخرين ويتصرف بتعجرف وغطرسة مما يؤدي إلى صراعات اجتماعية ونفسية[13].

1. الاستكبار في نظرية الهيمنة الاجتماعية:

أنطونيو غرامشي (1891–1937) طرح مفهوم الهيمنة (Hegemony) باعتباره سيطرة طبقة على أخرى ليس فقط بالقوة المادية، بل أيضا بالثقافة والأيديولوجيا، مما يجعل الطبقات الخاضعة تقبل بالرضا وهذه السيطرة بوصفها طبيعية وشرعية، فالاستكبار هنا يمثّل قوى الإنتاج والطبقات الرأسمالية التي تفرض نموذجها على العالم. يرى سيدانيوس وبراتو أن الاستكبار يتوافق مع نزعة التسلط والهيمنة الاجتماعية، حيث يسعى الأفراد والجماعات المتكبرة إلى السيطرة على الآخرين عن طريق فرض سلطتهم ورؤيتهم الخاصة للحياة[14].

2. الاستكبار وعلاقته بالسلوكيات الاجتماعية:

أ. التأثير السلبي على العلاقات الاجتماعية: أظهرت دراسات حديثة أن الأشخاص المتكبرين أقل قدرة على التعاطف، وأكثر ميلاً للصراعات الاجتماعية[15].

ب. ارتباطه بانخفاض المرونة النفسية: حيث يجد المستكبرون صعوبة في الاعتراف بأخطائهم أو التكيف مع التغيرات الحياتية[16].

ت. التأثير على القيادة واتخاذ القرار: القادة المتكبرون يميلون إلى اتخاذ قرارات غير رشيدة بسبب رفضهم للآراء المخالفة[17].

ثانيا: العلاقة بين الاستكبار والنرجسية والاضطرابات الشخصية.

1. العلاقة بين الاستكبار والنرجسية

النرجسية والاستكبار بينهما علاقة وثيقة، حيث يمثل الاستكبار أحد المظاهر الأساسية للشخصية النرجسية.

النرجسية هي حالة نفسية تتميز بالشعور المفرط بالأهمية الذاتية، والحاجة المستمرة للإعجاب، والافتقار إلى التعاطف مع الآخرين[18].

2. أوجه التشابه بين الاستكبار والنرجسية:

أ. النرجسيون والمستكبرون يعتقدون أنهم أعلى من الآخرين، ولا يقبلون النقد بسهولة[19].

ب. المستكبر يرفض الاعتراف بأخطائه ويتجنب مواجهة الحقائق التي تتعارض مع صورته الذاتية[20].

ت. الرغبة في السيطرة والتفوق: كلاهما يسعى إلى فرض سيطرته على الآخرين وإثبات تفوقه عليهم[21].

3. الفرق بين النرجسية والاستكبار:

أ. النرجسية قد تكون خفية أو علنية بينما الاستكبار غالبا ما يكون ظاهرا في السلوك والتعاملات.

ب. النرجسية تشمل الحاجة إلى الإعجاب بينما الاستكبار يتمحور أكثر حول التكبر والرفض المطلق للآخرين.

3. العلاقة بين الاستكبار واضطرابات الشخصية:

الاستكبار يرتبط بعدد من اضطرابات الشخصية وفقا للدليل التشخيصي والإحصائي للاضطرابات النفسية[22] ومن أهم هذه الاضطرابات:

أ. اضطراب الشخصية النرجسية[23]

سماته:

الإحساس بالعظمة والاعتقاد بالتفوق.

الحاجة إلى الإعجاب الدائم.

استغلال الآخرين لتحقيق المصالح الشخصية.

ضعف التعاطف مع الآخرين.

أما علاقته بالاستكبار فالشخص المصاب بهذا الاضطراب يتعامل مع الآخرين بتعالٍ ورفض للحقائق المخالفة لرؤيته الذاتية[24].

ب. اضطراب الشخصية المعادية للمجتمع

سماته:

التجاهل التام لمشاعر وحقوق الآخرين.

العدوانية والميل إلى العنف.

انعدام الشعور بالذنب.

أما علاقته بالاستكبار فالشخص المصاب بهذا الاضطراب يظهر استكبارا متجذرا في شعوره بعدم الحاجة إلى الآخرين ورغبته في فرض سيطرته[25].

ج. اضطراب الشخصية الحدية

سماته:

تقلبات عاطفية حادة.

ضعف السيطرة على المشاعر.

الشعور بالخوف من الهجر.

أما علاقته بالاستكبار فإن المصابين بهذا الاضطراب ليسوا مستكبرين بطبيعتهم، إلا أن بعضهم قد يظهر سلوكيات متكبرة كوسيلة لحماية أنفسهم من الألم العاطفي[26].

المبحث الثاني: أنواع الاستكبار وأسبابه على وفق المنظور القرآني

المطلب الأول: أنواع الاستكبار في القرآن الكريم

يُعد الاستكبار من الصفات المذمومة في القرآن الكريم، حيث يعبر عن رفض الحق والتعالي على الآخرين بدون وجه حق.

وقد تناول القرآن الكريم الاستكبار بصور متعددة سواء على المستوى الفردي أو الجماعي ليبين خطورته وعواقبه على الأفراد والمجتمعات.

1. الاستكبار الفردي في القرآن الكريم.

أ. استكبار إبليس.

يُعد إبليس أول وأبرز نموذج للاستكبار الفردي في القرآن الكريم عندما أمره الله بالسجود لآدم (ع)، رفض واستكبر معللاً ذلك بأنه أفضل من آدم خِلقةً: ﴿قَالَ أَنَا خَيْرٌ مِّنْهُ خَلَقْتَنِي مِن نَّارٍ وَخَلَقْتَهُ مِن طِينٍ﴾[27].

يمثل استكبار إبليس رفض الامتثال لأمر الله بناءً على اعتقاد باطل بالتفوق الذاتي[28]، وهذا النوع من الاستكبار يُعرف في علم النفس بمفهوم التكبر الدفاعي حيث يبرر الشخص رفضه للامتثال بأسباب واهية للحفاظ على صورته الذاتية[29].

ب. استكبار فرعون.

فرعون يُعد مثالًا آخر على الاستكبار الفردي، حيث زعم الألوهية ورفض الاعتراف بقدرة الله قائلاً: ﴿أَنَا رَبُّكُمُ الْأَعْلَىٰ﴾[30]، كذلك في مورد آخر: ﴿وَقَالَ فِرْعَوْنُ يَا أَيُّهَا الْمَلَأُ مَا عَلِمْتُ لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرِي﴾[31].

مارس فرعون نوعا من الاستكبار المتسلط الذي يقوم على إخضاع الآخرين بالقوة وتضليلهم بفكرة أنه صاحب السلطة المطلقة[32].

هذا النوع من الاستكبار يرتبط في علم النفس باضطراب الشخصية النرجسية المتسلطة، حيث يعتقد الشخص أنه محور الكون ويعاني من أوهام العظمة[33].

ث. استكبار قارون

قارون كان مثالا على الاستكبار الناتج عن الغنى والثراء، حيث قال: ﴿إِنَّمَا أُوتِيتُهُ عَلَىٰ عِلْمٍ عِندِي﴾[34].

رفض قارون الاعتراف بأن المال والنجاح بفضل الله وظن أن ذكاءه الشخصي هو السبب مما يعكس الاستكبار المادي[35].

يتشابه هذا السلوك علميا مع مفهوم التحيز للإنجاز الذاتي، حيث يعزو الإنسان نجاحه لجهوده فقط بينما يلقي اللوم على الآخرين عند الفشل[36].

2. الاستكبار الجماعي في القرآن الكريم.

أ. استكبار الأمم السابقة.

يذكر القرآن الكريم أممًا استكبرت جماعيا ورفضت دعوات الأنبياء، مثل قوم نوح، وعاد، وثمود، حيث قال تعالى عنهم: ﴿كَذَٰلِكَ مَا أَتَى الَّذِينَ مِن قَبْلِهِم مِّن رَّسُولٍ إِلَّا قَالُوا سَاحِرٌ أَوْ مَجْنُونٌ﴾[37].

هذا النوع من الاستكبار يُعرف بالاستكبار الثقافي أو الجماعي، حيث ترفض المجتمعات التغيير حفاظًا على مصالحها أو عاداتها[38].

وفي علم النفس يتشابه مع مفهوم المقاومة الجماعية للتغيير، حيث تخشى الجماعات فقدان الهوية أو السلطة[39].

ب. استكبار المستكبرين عن الحق

بعض الفئات ترفض الحق عن عمد رغم وضوحه كما في قوله تعالى: ﴿وَجَحَدُوا بِهَا وَاسْتَيْقَنَتْهَا أَنفُسُهُمْ ظُلْمًا وَعُلُوًّا﴾[40].

يمثل هذه النوع الاستكبار الأيديولوجي، حيث يتم رفض الحقائق لأن قبولها يتطلب تغييرا فكريا أو اجتماعيا غير مرغوب فيه[41].

وفي علم النفس يتطابق هذا النوع مع التحيز المعرفي، حيث يرفض الشخص الأدلة المناقضة لمعتقداته لتجنب التنافر المعرفي[42].

لذا فإن القرآن الكريم يميز بين أنواع متعددة من الاستكبار سواء الفردي كما في قصة إبليس وفرعون وقارون، أو الجماعي كما في استكبار الأمم السابقة والمستكبرين عن الحق.

هذه الأنواع من نظريات علم النفس تتوافق مع النظريات القرآنية حول الغطرسة والهيمنة والتكبر النرجسي، مما يثبت أن الاستكبار ليس مجرد ظاهرة دينية بل له جذور عميقة في السلوك البشري على مر العصور.

المطلب الثاني: أسباب الاستكبار النفسية والاجتماعية

الاستكبار من الظواهر السلوكية التي تنبع من دوافع نفسية واجتماعية متداخلة مما يجعله سلوكا معقدا يتفاوت في أسبابه من شخص إلى آخر.

يمكن تصنيف هذه الأسباب إلى عوامل نفسية متعلقة بتكوين الشخصية والاضطرابات النفسية وعوامل اجتماعية تتأثر بالبيئة والتنشئة والثقافة.

أولًا: العوامل النفسية للاستكبار

الاستكبار ينبع من تركيبة شخصية متضخمة تعزز الشعور بالتفوق الذاتي وغالبا ما يرتبط بعدة عوامل نفسية أبرزها:

1. الشعور بالعظمة.

يُعرَّف الشعور بالعظمة بأنه الاعتقاد المبالغ فيه بامتلاك مواهب أو قدرات خارقة مقارنة بالآخرين[43]، وفي القرآن الكريم يمثل فرعون أنموذجا لهذا الشعور عندما ادّعى الألوهية: ﴿فَحَشَرَ فَنَادَىٰ فَقَالَ أَنَا رَبُّكُمُ الْأَعْلَىٰ﴾[44].

2. حب السيطرة.

حب السيطرة هو الرغبة المفرطة في فرض النفوذ على الآخرين ورفض الخضوع لأي سلطة أعلى، وفي القرآن الكريم يعكس نموذج إبليس هذا الميل، حيث رفض السجود لآدم تعبيرا عن رفضه لفكرة أن يكون خاضعًا لأمر الله بالسجود لبشر: ﴿قَالَ لَمْ أَكُنْ لِأَسْجُدَ لِبَشَرٍ خَلَقْتَهُ مِنْ صَلْصَالٍ﴾[45].

يُطلق في علم النفس على هذه النزعة (الميول السلطوية)، حيث يميل الشخص إلى التحكم بالآخرين وإخضاعهم لإرادته[46].

3. الجهل.

الجهل يُعتبر أحد المحركات الأساسية للاستكبار، حيث يؤدي إلى رفض الحقائق وعدم تقبل الآراء المخالفة، والقرآن الكريم يصف هذا النوع من الاستكبار في الأمم السابقة: ﴿بَلِ ٱتَّبَعَ ٱلَّذِينَ ظَلَمُواْ أَهۡوَآءَهُم بِغَيۡرِ عِلۡمٍ﴾[47].

يرتبط هذا السلوك بمفهوم (التحيز المعرفي)، حيث يرفض الأفراد مراجعة أفكارهم حتى لو كانت خاطئة[48].

ثانيا: العوامل الاجتماعية للاستكبار.

إلى جانب العوامل النفسية يلعب المجتمع دورا كبيرا في تشكيل نزعة الاستكبار من خلال التربية والثقافة والتأثير السياسي.

1. البيئة التربوية.

التربية الأسرية تُسهم بشكل كبير في تشكيل شخصية الطفل، فإذا نشأ في بيئة تدعم التفوق المطلق دون تعزيز قيم التواضع، فقد يتجه نحو الاستكبار.

النبي نوح (ع) واجه هذا النمط مع ابنه الذي رفض نصيحته متأثرا بتربيته ونمط تفكيره المستقل عن الوحي: ﴿قَالَ سَآوِي إِلَىٰ جَبَلٍ يَعۡصِمُنِي مِنَ ٱلۡمَآءِ﴾[49].

تشير الدراسات إلى أن التربية السلطوية، التي تعتمد على تعظيم الطفل دون تصحيح أخطائه، تؤدي إلى بناء شخصية نرجسية متكبرة[50].

2. التأثير الثقافي.

بعض الثقافات تعزز التفوق الطبقي أو العرقي أو الفكري مما يؤدي إلى ترسيخ قيم الاستكبار داخل المجتمع، لذا أشار القرآن الكريم إلى ذلك التأثير في موقف المشركين من دعوة النبي (ص): ﴿وَقَالُواْ لَوْلَا نُزِّلَ هَٰذَا ٱلْقُرْءَانُ عَلَىٰ رَجُلٍ مِّنَ ٱلْقَرْيَتَيْنِ عَظِيمٍ﴾[51].

علم النفس الاجتماعي يوضح أن المجتمعات التي تُعزز الهوية الجماعية المتفوقة تكون أكثر ميلا لإنتاج أفراد متكبرين نظرا لاعتقادهم بأنهم ينتمون إلى فئة أعلى من غيرهم[52].

3. النفوذ السياسي.

السلطة السياسية المطلقة تؤدي في كثير من الأحيان إلى الاستكبار، حيث يشعر الحكام بأنهم غير خاضعين للمساءلة.

يتجلى في قصة فرعون الاستكبار عندما سخر من النبي موسى (ع) وحاول إقناع قومه بعدم تصديقه: ﴿وَقَالَ فِرْعَوْنُ يَٰٓأَيُّهَا ٱلْمَلَأُ مَا عَلِمْتُ لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرِى﴾[53].

يرتبط هذا السلوك بمفهوم (متلازمة السلطة)، حيث تؤدي السلطة المطلقة إلى تضخم الأنا وزيادة الاستعلاء على الآخرين[54].

فالاستكبار ليس مجرد سلوك فردي بل هو ظاهرة معقدة تتداخل فيها العوامل النفسية، مثل الشعور بالعظمة، وحب السيطرة، والجهل، مع العوامل الاجتماعية، مثل التربية، والتأثير الثقافي، والسلطة السياسية.

وقد أكَّدت الدراسات النفسية الحديثة وجود روابط قوية بين الاستكبار واضطرابات الشخصية، مما يجعل من الضروري تحليل هذه الظاهرة بعمق لفهم آثارها على الأفراد والمجتمعات.

المطلب الثالث: الأثر النفسي للاستكبار على الأفراد والمجتمعات.

الاستكبار هو أحد العوامل النفسية والاجتماعية التي تُسهم في تشكيل أنماط السلوك الفردي والجماعي وينعكس الاستكبار على الأفراد في سلوكهم وعلاقاتهم الشخصية، ويؤثر على المجتمعات من تعزيز الانقسامات الاجتماعية وعرقلة التطور الحضاري.

يمكن دراسة هذا التأثير على وفق مستويين أساسيين: الأثر النفسي على الأفراد، والأثر الاجتماعي على المجتمعات.

أولا: الأثر النفسي للاستكبار على الأفراد.

1. اضطراب العلاقات الشخصية.

الاستكبار يؤدي إلى اضطراب في العلاقات الاجتماعية، حيث يميل الشخص المستكبر إلى النظر إلى الآخرين بدونية، مما يقلل من مستوى تعاطفه معهم[55].

والقرآن الكريم يشير إلى هذا النمط في وصف فرعون الذي استخف بقومه ليحافظ على سلطته: ﴿فَٱسْتَخَفَّ قَوْمَهُۥ فَأَطَاعُوهُ إِنَّهُمْ كَانُواْ قَوْما فَٰسِقِينَ﴾[56].

2. تضخم الأنا وزيادة النزعة النرجسية.

يعزز الاستكبار النرجسية المرضية، حيث يشعر المستكبر بأنه متفوق على الآخرين دون مبرر واقعي[57].

وفي القرآن الكريم تتجلى هذه الحالة في موقف إبليس عندما رفض السجود لآدم بسبب اعتقاده بأنه أفضل منه: ﴿أَنَاْ خَيْرٌ مِّنْهُ خَلَقْتَنِى مِن نَّارٍ وَخَلَقْتَهُۥ مِن طِينٍ﴾[58].

3. القلق وعدم الاستقرار النفسي.

على الرغم من المظهر القوي الذي يظهره المستكبر إلَّا أن الدراسات النفسية تشير إلى أن الاستكبار غالبًا ما يخفي مشاعر عدم الأمان والقلق، والأفراد الذين يتصفون بالاستكبار يميلون إلى القلق المستمر بشأن صورتهم أمام الآخرين، مما يجعلهم أكثر عرضة للإجهاد النفسي[59].

يوضح القرآن الكريم الأمر في موقف قارون الذي أظهر التكبر لكنه لم يكن مستقرا نفسيا مما أدَّى إلى هلاكه: ﴿فَخَسَفْنَا بِهِۦ وَبِدَارِهِ ٱلْأَرْضَ﴾[60].

ثانيا: الأثر الاجتماعي للاستكبار على المجتمعات.

1. تعزيز الانقسامات الاجتماعية.

يؤدي الاستكبار إلى زيادة الانقسامات الطبقية والعرقية والفكرية داخل المجتمعات، حيث يرى المستكبرون أنفسهم أعلى شأنا من غيرهم[61].

يصف القرآن الكريم هذه الظاهرة في موقف المشركين من النبي محمد (ص) عندما رفضوا قبول دعوته بناءً على تمييز اجتماعي: ﴿وَقَالُوا لَوْلَا نُزِّلَ هَٰذَا ٱلْقُرْءَانُ عَلَىٰ رَجُلٍ مِّنَ ٱلْقَرْيَتَيْنِ عَظِيمٍ﴾[62].

2. تعطيل التقدم والتطور الحضاري.

المجتمعات التي ينتشر فيها الاستكبار تعاني من ضعف التقدم الحضاري، حيث يرفض المستكبرون أي تغيير قد يهدد مصالحهم[63].

يوضح القرآن الكريم المفهوم في رفض الأمم السابقة للأنبياء بسبب استكبارهم مما أدَّى إلى انهيار حضاراتهم: ﴿فَكُلًّا أَخَذْنَا بِذَنۢبِهِۦ فَمِنْهُم مَّنْ أَرْسَلْنَا عَلَيْهِ حَاصِبا وَمِنْهُم مَّنْ أَخَذَتْهُ ٱلصَّيْحَةُ﴾[64].

3. نشر الظلم والاستبداد.

الاستكبار في المجتمعات يؤدي إلى انتشار الظلم والاستبداد، حيث يسعى المستكبرون إلى الحفاظ على سلطتهم من خلال قمع الآخرين[65].

وفي القرآن الكريم يتجسد هذا الاستبداد في قصة فرعون الذي رفض تحرير بني إسرائيل واستمر في اضطهادهم: ﴿إِنَّ فِرْعَوْنَ عَلَا فِى ٱلْأَرْضِ وَجَعَلَ أَهْلَهَا شِيَعا يَسْتَضْعِفُ طَآئِفَةً مِّنْهُمْ يُذَبِّحُ أَبْنَآءَهُمْ وَيَسْتَحْىِۦ نِسَآءَهُمْ﴾[66].

فالاستكبار ليس مجرد سلوك فردي بل هو ظاهرة نفسية واجتماعية تؤثر سلبا على الأفراد والمجتمعات.

المبحث الثالث: المعالجة القرآنية للاستكبار والوقاية منه

يقدّم القرآن الكريم منهجا علاجيا شاملا لمواجهة هذه الظاهرة، إذ يركز على إصلاح الفرد والمجتمع من خلال العبادات والتربية الأخلاقية.

المطلب الأول: دور العبادات والتزكية في معالجة الاستكبار.

أولا: أثر الصلاة والزكاة في تهذيب النفس.

الصلاة هي من أهم العبادات التي تُسهم في تهذيب النفس والتقليل من نزعة الاستكبار، حيث تُذكر الإنسان بضعفه أمام الله. يقول تعالى: ﴿إِنَّ ٱلصَّلَوٰةَ تَنْهَىٰ عَنِ ٱلْفَحْشَآءِ وَٱلْمُنكَرِ﴾[67].

إن الصلاة الحقيقية تمنع الإنسان من الكِبر والتعالي، إذ أنها تعزز روح الخضوع لله والتواضع[68].

وتشير الدراسات النفسية الحديثة أن الممارسات التأملية المنتظمة، مثل الصلاة، تقلل من مستويات النرجسية والاستكبار، وتعزز مشاعر التواضع والتعاطف[69].

ومن ناحية أخرى تُسهم الزكاة في كسر النزعة الاستكبارية لدى الإنسان لأنها تجبره على مشاركة أمواله مع الفقراء مما يعزز الإحساس بالمساواة الاجتماعية، يقول تعالى: ﴿خُذْ مِنْ أَمْوٰلِهِمْ صَدَقَةً تُطَهِّرُهُمْ وَتُزَكِّيهِمْ بِهَا﴾[70].

إن الزكاة اختبار حقيقي للتواضع، حيث تجرد الإنسان من الشعور بالاستعلاء على الآخرين.

والعبادات في الإسلام تهدف إلى إعادة تشكيل النفس الإنسانية، بحيث تعتاد على الخضوع لله سبحانه مما يجعلها أقل ميلًا للاستكبار، ففي السجود تحديدا يخضع الإنسان جسديا وروحيا لله مما يرسخ قيمة التواضع وكسر الأنانية، يقول النبي محمد (ص): "أقرب ما يكون العبد إلى ربه وهو ساجد"[71].

وتُظهر الأبحاث أن السلوكيات التعبدية المتكررة تخلق أنماطا عصبية تُحفز مشاعر التواضع والإيثار[72].

المطلب الثاني: التربية القرآنية وأثرها في مواجهة الاستكبار

1. توجيهات القرآن في تعزيز التواضع.

يوجه القرآن الكريم المؤمنين الابتعاد عن الغرور والاستكبار ويحثّ على التواضع في عدة مواضع منها: ﴿وَلَا تُصَعِّرْ خَدَّكَ لِلنَّاسِ وَلَا تَمْشِ فِي ٱلْأَرْضِ مَرَحًا إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُحِبُّ كُلَّ مُخْتَالٍ فَخُورٍ﴾[73].

الآية الكريمة تعكس نهجا سلوكيا يعزز التواضع ويحذر من الممارسات المتكبرة[74].

وفي العلاقات الاجتماعية يحث القرآن على التواضع في التعامل مع الآخرين: ﴿وَٱخْفِضْ جَنَاحَكَ لِلْمُؤْمِنِينَ﴾[75].

2. قصص الأنبياء كنماذج للتواضع ونبذ الاستكبار

جسّد فرعون قمة الاستكبار بينما مثل موسى قمة التواضع عندما طلب العون من الله قائلاً: ﴿رَبِّ ٱشْرَحْ لِى صَدْرِى وَيَسِّرْ لِىٓ أَمْرِى﴾[76].

كذلك النبي سليمان (ع) رغم ملكه الواسع، ظل متواضعا وقال: ﴿هٰذَا مِن فَضْلِ رَبِّى لِيَبْلُوَنِىٓ ءَأَشْكُرُ أَمْ أَكْفُرُ﴾[77].

هذه القصص تعزز مفهوم أن العظمة لا تعني الاستكبار بل تقترن بالتواضع والاعتراف بفضل الله.

المطلب الثالث: الحلول القرآنية لمواجهة الاستكبار المجتمعي

أولا: دور الإصلاح الاجتماعي في التصدي للاستكبار.

1. أثر القيم الأخلاقية في بناء مجتمعات متماسكة

المجتمعات التي تتبنى التواضع كقيمة أساسية تقل فيها النزاعات والصراعات، حيث يصبح التعاون والعدالة أساس العلاقات الاجتماعية(78).

يربط القرآن الكريم بين الإصلاح الاجتماعي ومحاربة الاستكبار، كما في قوله تعالى: ﴿وَٱلَّذِينَ تَبَوَّءُوا ٱلدَّارَ وَٱلْإِيمَٰنَ مِن قَبْلِهِمْ يُحِبُّونَ مَنْ هَاجَرَ إِلَيْهِمْ وَلَا يَجِدُونَ فِى صُدُورِهِمْ حَاجَةً مِّمَّآ أُوتُواْ وَيُؤْثِرُونَ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمْ﴾(79).

الآية الشريفة تعكس نموذجا لمجتمع خال من الاستكبار قائم على الإيثار والتواضع.

2. تعزيز ثقافة الحوار ونبذ التعصب

من أسباب الاستكبار المجتمعي غياب الحوار والانغلاق الفكري بينما يدعو القرآن إلى الحوار البناء: ﴿وَجَٰدِلْهُم بِٱلَّتِى هِىَ أَحْسَنُ﴾(80).

يشير هابرماس عالم الاجتماع إلى أن المجتمعات التي تنشئ فضاءات للحوار تتغلب على النزاعات الطبقية والاستكبار الجماعي(81).

كذلك ذهب بعضهم للقول بأن النبي محمد (ص) كان أنموذجا في نشر ثقافة الحوار حتى مع أعدائه مما عزز قيم التواضع داخل المجتمع الإسلامي الأول(82).

لذا قدم القرآن الكريم حلاً شاملاً لمعالجة الاستكبار على المستويين الفردي والمجتمعي، فعلى المستوى الفردي، أوصى بالعبادات والتزكية كوسائل تهذيبية، وعلى المستوى المجتمعي دعا إلى الإصلاح الاجتماعي، وتعزيز القيم الأخلاقية، ونشر ثقافة الحوار.

هذه الحلول ليست نظرية فحسب بل تؤكدها الدراسات النفسية والاجتماعية الحديثة مما يثبت عمق البعد النفسي والاجتماعي للتعاليم القرآنية في معالجة الاستكبار.

الخاتمة

أولا: أهم النتائج المستخلصة من البحث.

1. الاستكبار في القرآن الكريم يظهر كسبب رئيس في تفكك الذات الداخلية للفرد، حيث يُشعر الشخص المستكبر بالانفصال عن الواقع، مما يؤثر سلبًا على تطوره النفسي والاجتماعي، ويُظهر الاستكبار تأثيره المباشر على الروح الإنسانية، حيث يؤدي إلى التعالي على الآخرين والتجاهل للتواضع، مما يترتب عليه تأثيرات نفسية سلبية تؤدي إلى الانعزال والفقدان الداخلي.

2. الاستكبار يؤدي إلى تفكك العلاقات الاجتماعية ويُفاقم الصراعات بين الأفراد، إذ يصبح الشخص المستكبر غير قادر على التواصل الإيجابي مع الآخرين بسبب تعاليه عليهم، كما أن الاستكبار يُسهم في تعزيز الظلم الاجتماعي والتفرقة بين الناس، مما يضر بتماسك المجتمعات وينشر الفتن.
3. تؤدي ظاهرة الاستكبار إلى تفشي الفساد الاجتماعي، حيث يتم استغلال القوى الكبرى للضعفاء والقيام بالأعمال الظالمة، مما يزيد من الحقد والكراهية بين طبقات المجتمع، وهذا يؤدي إلى تدمير النسيج الاجتماعي.
4. على مستوى الأمة الإسلامية يتسبب الاستكبار في الفشل الجماعي والتخلف الفكري والروحي، حيث يعزز التفرقة الدينية والطائفية داخل الأمة، في حال تحول الأفراد أو المجموعات إلى النظر إلى أنفسهم على أنهم أفضل من الآخرين، كما يُظهر القرآن الكريم في العديد من آياته أن التعاون والتواضع هما السبل المثلى لتحقيق الاستقرار المجتمعي والسلام الاجتماعي.

ثانيا: التوصيات

1. تعزيز ثقافة التواضع في المجتمعات الإسلامية.
2. التشجيع على معالجة النزاعات الاجتماعية بروح التعاون.
3. التركيز على بناء الشخصية الإسلامية المتوازنة.
4. الاستفادة من الآيات القرآنية في معالجة القضايا النفسية.
5. تبني نموذج القيادة المتواضعة.
6. تعزيز قيم الشورى والتفاعل الإيجابي بين أفراد المجتمع.

الهوامش:

(1) ابن فارس، معجم مقاييس اللغة، ج5، ص191.
(2) الطوسي، التبيان في تفسير القرآن، ج5، ص215.
(3) يونس: 75.
(4) الطبرسي، مجمع البيان في تفسير القرآن،ج5، ص128.
(5) غافر: 60.
(6) الطباطبائي، الميزان في تفسير القرآن، ج17، ص300.
(7) الكليني، الكافي، ج2، ص309.
(8) الراغب الأصفهاني، المفردات في غريب القرآن، ص367.
(9) الطوسي، التبيان في تفسير القرآن، ج8، ص214.
(10) لقمان: 33.
(11) Baumeister, R. F. (1999). The Self in Social Psychology. New York: Psychology Press
(12) Freud, S. (1914). On Narcissism: An Introduction. Standard Edition, 14: 67–102

Paulhus, D. L. (2001). **Normal narcissism: Two minimalist accounts.** *Psychological Inquiry*, 12(4), 228-230. (13)

Sidanius, J., & Pratto, F. (1999). **Social Dominance: An Intergroup Theory of Social Hierarchy and Oppression.** Cambridge: Cambridge University Press. (14)

Campbell, W. K., & Foster, C. A. (2007). **Narcissism and commitment in romantic relationships: An investment model analysis.** *Personality and Social Psychology Bulletin*, 33(11), 1604-1619. (15)

Kernis, M. H. (2003). **Toward a conceptualization of optimal self-esteem.** *Psychological Inquiry*, 14(1), 1-26. (16)

Peterson, R. S., Smith, D. B., Martorana, P. V., & Owens, P. D. (2012). **The impact of chief executive officer personality on top management team dynamics: One mechanism by which leadership affects organizational performance.** *Journal of Applied Psychology*, 88(5), 795-808. (17)

(18) American Psychiatric Association, 2013

(19) Campbell & Foster, 2007

(20) Miller et al., 2010

(21) Paulhus, 2001

(22) (American Psychiatric Association, 2013) (DSM-5)

(23) Narcissistic Personality Disorder – NPD

(24) Miller et al., 2010

(25) Peterson et al., 2012

(26) Kernis, 2003

(27) ص: 76.

(28) ظ: الطبرسي، مجمع البيان، ج7، ص210.

(29) Baumeister, 1999

(30) النازعات: 24.

(31) القصص: 38.

(32) ظ: الطباطبائي، الميزان، ج16، ص100.

(33) Campbell & Foster, 2007)

(34) القصص: 78.

(35) ظ: الفيض الكاشاني، تفسير الصافي، ج4، ص301.

(36) Miller et al., 2010

(37) الذاريات: 52.

(38) ظ: الرازي، التفسير الكبير، ج27، ص220.

(39) Sidanius & Pratto, 1999

(40) النمل: 14.

(41) ظ: الطوسي، التبيان في تفسير القرآن، ج8، ص312.

(42) Festinger, 1957

(43) Baumeister, 1999

(44) النازعات: 23-24.

(45) الحجر: 33.

(46) Adorno et al., 1950

(47) الروم: 29.

(48) Festinger, 1957

(49) هود: 43.

(50) Baumrind, 1967

(51) الزخرف: 31.

(52) Tajfel & Turner, 1986

(53) القصص: 38.

(54) Keltner, 2003

(55) Baumeister, 1999

(56) الزخرف: 54.

(57) Miller et al., 2011

(58) الأعراف: 12.

(59) Kernis, 2003

(60) القصص: 81.

(61) Sidanius & Pratto, 1999

(62) الزخرف: 31.

(63) Acemoglu & Robinson, 2012

(64) العنكبوت: 40.

(65) Winter et al., 1998

(66) القصص: 4.

(67) العنكبوت: 45.

(68) الطبرسي، مجمع البيان في تفسير القرآن، ج7، ص143.

(69) Worthington et al., 2017

(70) التوبة: 103.

(71) محمد الريشهري، ميزان الحكمة، ج 2- ص 1252.

(72) Davidson & McEwen, 2012

(73) لقمان: 18.

(74) ظ: الطباطبائي، الميزان في تفسير القرآن، ج16، ص213.

(75) الحجر: 88.

(76) طه: 25-26.

(77) النمل: 40.

(78) Putnam, 2000

(79) الحشر: 9.

(80) النحل: 125.

(81) Habermas, 1984

(82) Ibn Hisham, Sirat Rasul Allah, Vol. 2, p. 75

المصادر والمراجع:

1. ابن فارس1979 (معجم مقاييس اللغة)تحقيق عبد السلام هارون، ط. 1 بيروت: دار الفكر.
2. الطوسي، محمد بن الحسن. (د.ت) .التبيان في تفسير القرآن، ط2/ 1891.
3. الطبرسي، الفضل بن الحسن. (2005 .(مجمع البيان في تفسير القرآن)تحقيق لجنة من العلماء، ط 2 بيروت: مؤسسة الأعلمي.
4. الطباطبائي، محمد حسين. (د.ت)الميزان في تفسير القرآن، طبعة الرونق/ ط3.
5. الكليني، محمد بن يعقوب. (د.ت)الكافي، طبعة بيروت/ دار الفكر.
6. الراغب الأصفهاني. (د.ت)المفردات في غريب القرآن، ط3/ 1998.
7. الفيض الكاشاني. (د.ت)تفسير الصافي، طبعة دار العلم، ط2/ 2001.
8. الرازي، فخر الدين. (د.ت)التفسير الكبير، طبعة بيروت، ط4/ 2003.
9. الريشهري، محمد. (د.ت)ميزان الحكمة، مطبعة المدرسين بقم.
10. ابن هشام. (د.ت)سيرة رسول الله، طبعة بيروت، ط2/ 1991.

المصادر الأجنبية

1. Acemoglu, D., & Robinson, J. (2012). Why nations fail: The origins of power, prosperity, and poverty. Crown.
2. Adorno, T. W., Frenkel-Brunswik, E., Levinson, D. J., & Sanford, R. N. (1950). The authoritarian personality. Harper & Brothers.
3. American Psychiatric Association. (2013). Diagnostic and statistical manual of mental disorders (5th ed.).
4. Baumeister, R. F. (1999). The self in social psychology. Psychology Press.
5. Baumrind, D. (1967). Child care practices anteceding three patterns of preschool behavior. Genetic Psychology Monographs.

6. Campbell, W. K., & Foster, C. A. (2007). Narcissism and commitment in romantic relationships: An investment model analysis. Personality and Social Psychology Bulletin.
7. Davidson, R. J., & McEwen, B. S. (2012). Social influences on neuroplasticity: Stress and interventions to promote well-being. Nature Neuroscience.
8. Festinger, L. (1957). A theory of cognitive dissonance. Stanford University Press.
9. Freud, S. (1914). On narcissism: An introduction. Standard Edition.
10. Habermas, J. (1984). The theory of communicative action (Vol. 1). Beacon Press.
11. Keltner, D. (2003). Expression and the course of life: Studies of emotion, personality, and psychopathology. American Psychological Association.
12. Kernis, M. H. (2003). Toward a conceptualization of optimal self-esteem. Psychological Inquiry.
13. Miller, J. D., Hoffman, B. J., Gaughan, E. T., Gentile, B., Maples, J., & Campbell, W. K. (2010). Grandiose and vulnerable narcissism: A nomological network analysis. Journal of Personality.
14. Paulhus, D. L. (2001). Normal narcissism: Two minimalist accounts. Psychological Inquiry.
15. Peterson, R. S., Smith, D. B., Martorana, P. V., & Owens, P. D. (2012). The impact of chief executive officer personality on top management team dynamics: One mechanism by which leadership affects organizational performance. Journal of Applied Psychology.
16. Putnam, R. D. (2000). Bowling alone: The collapse and revival of American community. Simon & Schuster.
17. Sidanius, J., & Pratto, F. (1999). Social dominance: An intergroup theory of social hierarchy and oppression. Cambridge University Press.
18. Tajfel, H., & Turner, J. C. (1986). The social identity theory of intergroup behavior. In S. Worchel & W. G. Austin (Eds.), Psychology of intergroup relations. Nelson-Hall.
19. Winter, D. G., John, O. P., Stewart, A. J., Klohnen, E. C., & Duncan, L. E. (1998). Content analysis of archival data: A new method for scoring and validation. Journal of Personality and Social Psychology.
20. Worthington, E. L., Hook, J. N., Davis, D. E., & McDaniel, M. A. (2017). Forgiveness and health: Scientific evidence and theories relating forgiveness to better health. Springer.